في مكـة

(٢)

وصلتُ إلى مكة مع صلاة الظهر، وسألت في معهد الحرم عن عايض بن دريميح أو عبد الله الحربي، ووصلت إلى عبد الله الحربي وتعارفنا، وقال لي: لعلّنا نجد عايضاً في بيت الإخوان في حوض البقر، وهو أول بيت للإخوان في مكة. وذهبنا إليه هناك. وكان البيت عبارة عن أرض مُسوَّرة بالبلوك، فيه غرفتان متواضعتان مسقوفتان بالخشب والبلاكاش، والبناء بمجمله عشوائي؛ فلا أساسات تُذكر للغُرف، ولا استقامة للسُّور، أمّا الأرضية فغير ممهّدة وقد تُركت بنُتُوآتها الصخرية، ولا يوجد فيه حمّام، ومن أراد قضاء حاجته يذهب إلى حمّامات المسجد القريب من البيت. وكذا من أراد الاغتسال. البيت فقير بكلّ معنى الكلمة، وأظنّ أنه كان زريبة للحيوانات، وذلك لوجود مخلّفاتها فيه.

وانتظرتُ عايضاً حتى جاء بعد بُرهة، وأعطيتُه الرسالة

التي كتبها علي المزروعي، فقال لي إنّ المعهد سيستأنف الدراسة فيها بعد الحجّ، وأنا سأكلّم لك مدير المعهد الشيخ صالح المقوشي. وفِعلاً، تركتُ أمر المعهد والتسجيل فيه لعايض، واندمجت في حياة الإخوان، ولازَمْتُ عبد الله الحربي ـ الرجل الأول من حيث الحركةُ في فرع مكّة ـ فهو الذي يجمع الإخوان، ويذهب بهم للدعوة في ضواحي مكّة، وهو الذي يقودُهم لطلب العلم على المشايخ. تعرّفْتُ وقتها إلى سلطان اللحياني وأخيه منصور الذي كان وقتها ينتمي إلى جماعة التبليغ، وابن عمّهم عبد اللطيف اللحياني، وسُويلم السلمي، ومرزوق الهذلي، وحسين الغامدي، وسالم الحازمي، ونور الدين ابن شيخنا بديع الدين بن إحسان الله شاه الراشدي. هذه أغلب أسماء الإخوان في مكة في الوقت الذي وصلت إليهم فيه، ولا يتعدّى سنُّ أكبرهم الخامسة والعشرين، ما عدا عايض بن دريميح؛ فسنُّه وقتها كان فوق الأربعين، وذكر لي أنه بدأ بتعليم نفسه كبيراً، وكان بدويّاً يرعى الإبل إلى سنّ الثلاثين، ثم انتقل إلى مكة بعد أن علّم نفسه القراءة والكتابة في البادية، فدخل معهد الحرم لعدم اشتراطهم الشهادة الابتدائية، وإنما يُجرى لك مقابلةٌ شخصية يُحدَّدُ من خلالها المستوى العلمي والتحصيلي غير النظامي، فمعهد الحرم شكلٌ مُطوَّرٌ من دراسة الأروقة، وبالفعل؛ فدُرُوسه تتمُّ في أروقة الحرم على الأرض.

وقتها كُنّا في موسم الحج، وكنت منبهراً جدّاً بهذا المكان الجديد علَيّ: حُجّاجٌ من جميع الأجناس ومن جميع

بقاع الأرض، وحركةٌ لا تفتر في الأربع والعشرين ساعةً، ومُعتمِرُون، فقضيْتُ جُلّ وقتي في الحرم، واستطاع عايض بن دريميح أن يحصل للإخوان على إحدى الخلوات[1] في الحرم، فكانت خير مُعِينٍ لي في المبيت هناك، ما عدا ليالي كنّا نُمنع من المبيت فيها؛ بسبب توقُّع قُدوم سيلٍ ينحدر من شِعاب مكة، ويأتي هادراً إلى مركز انحدار الأرض في الحرم؛ لذلك أُقيم له تصريف تحت الحرم، وكان أحياناً يدخل القبو، فكانوا في الحرم ينبّهون الناس لِقُدوم السيل من أجل أخذ الحيطة والحذر، وخصوصاً القاطنين في الخلوات. ثم أخبرني عبد الله الحربي أنّ الإخوان في المدينة المنوّرة سوف يحجُّون، وأنّنا يجب أن نستعدّ لنصب الخيام في مِنى. وفِعلاً، بعدها بأيام وصلتْ خِيامُهم من المدينة في السادس من ذي الحجّة تقريباً، وساعَدْنا في نَصْبِها في المكان المحدّد لها في مِنى، بحيث أصبحت جاهزةً لاستقبالهم، وكان مخيّماً كبيراً. وبدأنا باستقبالهم في مكة، فتعرّفْتُ وقتها إلى عليّ بن مشرف العمري، وهو أول من تعرّفْتُ إليه مِن أهل المدينة، كما إني كنتُ متلهّفاً للقاء أُناسٍ سبقَتْهُم سُمعتُهم بشكلٍ عجيب، مثل جهيمان، وتعرّفتُ إليهم جميعاً في المخيم بِمِنى، مثل ناصر بن حسين، وسليمان بن شتيوي، وسعد التميمي، وجهيمان، وأحمد حسن المعلم، وفيصل محمد فيصل، ومقبل الوادعي، وردن

(١) كان في (بدروم) الحرم عدد كبير من الخلوات، وكان الإخوان في مكة أدرى الناس بها وبدهاليزها، فكانوا خير معين لجهيمان في حادثة اقتحام الحرم.

العتيبي، ومطلق بن سهل من ساجر، وسلطان وفهد وعمر وعبد الله وعباس أبناء جار الله من حائل، ومجموعة من السودانيّين من جماعة أنصار السنّة قدِمَتْ من الطائف، ومجموعات قدِمَتْ من جميع مناطق المملكة. وأُفرد مكانٌ للشيخ الألباني الذي التقيتُ به لأول مرة. كنت وقتها في حالة دهشة حتى الثمالة؛ لالتقائي بالشيخ الألباني بحاشيته الكبيرة من سلفيّي الشام، وحديثه معنا!.. وحقيقةً، كنت في حالة ذهول شديدة! هل أنا فعلاً أجلس بشكل مباشر مع الشيخ الذي تتلمذْتُ لبعض كُتبه، وتبنّيْتُ أفكاره واجتهاداته من خلال السماع لدرجة التقليد الأعمى.

كان الدور المناط بإخوان مكة القيام بكل مستلزمات المخيّم؛ لأنّ جميع مَنْ في المخيم دخلوا تحت إمرة عايض بن دريميح النفيعي، أمير الإخوان في مكة، فتوزّع الإخوان المهامَّ: منهم من عمل في المطبخ، ومنهم من تولّى جَلْب المياه، ومنهم من تولّى جلب الإعاشة، وكان دوري مع عبد الله الحربي جَلْب الإعاشة، فكُنّا نجلب الخبز بكمّيات كبيرة من مخبز في البلد قبل صلاة الفجر للفطور.

وهكذا مرّت أيام الحجّ بين أداء المناسك، وحُضور دُروس الإخوان ودروس الألباني، وتعرُّفي إلى مَنْ لم أعرفه من الإخوان، وتوطيد علاقتي بجهيمان الذي بدا وقتها مشغولاً جداً، وبدأت أتلمّس آنذاك المسائل التي يُخالف فيها الإخوان أصحاب المذاهب الفقهية من المقلّدين، وانتهى الحجّ وعاد الإخوان إلى مناطقهم وعُدنا إلى الحرم.

هذا اللقاء الذي تمّ في الحجّ، يكاد يكون هو العلامة عندي في تلك الفترة على أنّني قد أصبحت أنتمي إلى جماعة سلفية حقيقية؛ فمسلكُهم، وسِيمَاهُم، ودَمَاثةُ أخلاقهم، وما يشغلون به وقتهم كلّ ذلك محسوب. كما إنّهم يتميّزون عن الجماعة السلفية في الكويت بأنهم أكثرُ جِدّيةً وخُشونةً وعُزُوفاً عن الشكليات الدنيوية؛ فمثلاً، لم يحدث في خلال علاقتي بالجماعة السلفية المحتسبة، أنْ خَرَجْنا في مجموعة من أجل أن نأكل كنافة مثلاً، مثلما كان يحدث في الكويت حيث كنّا نخرج لأكل الكنافة عند الكرد أو الصمدي، أو نخرج لنتناول (الآيس كريم) أو غير ذلك. . . بل كانت الخطوات محسوبةً ومُقنّنةً ليس من خلال نظام داخلي، بل كانت طريقة حياة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعتهم البدْوِية الصِّرْفة. لهذا تجِدُهم مُتواضعين في طريقة حياتهم؛ فبيوتهم في الحرّة الشرقية مختصرة جدّاً، بحيث إنّني لم أدخل مجلساً من مجالسهم يحتوي على غير (الموكيت) والمتاكي ومكتبة عامرة بكُتُب الحديث، خصوصاً، وكتب التفسير. وكانت مكتبة جهيمان تحتوي على أغلب كُتب الألباني والكتب الستّة بشروحها، **وتفسير ابن سعدي**، **وتفسير ابن كثير**، والبغوي، وكتاب **إتحاف الجماعة** للشيخ حمود التويجري، **ونيل الأوطار**، **وسُبُل السلام**، أمّا كُتب المذاهب الفقهية، فتكاد تكون معدومةً، ومجموعة التوحيد، وكتب ابن تيمية وابن قيّم الجوزية، **وشرح العقيدة الطحاوية**. هذا مجمل مكتبة جهيمان، وقِسْ عليها أغلب مكتبات الإخوان، ما عدا مكتبة مقبل بن هادي الوادعي،

ومكتبة علي المزروعي؛ فمكتبة مقبل تتميّز بأنها مكتبةٌ حَدِيثيّة صِرْفة وما يتبعها من كُتب فقه الحديث، أما المزروعي فمكتبتُه فقهية حديثية.

ـ أ ـ

في تلك الفترة وبعد مرور سنةٍ على وجودي في مكة، انتقل الإخوان من (حوض البقر) إلى بيتٍ آخر يقع في مكانٍ يُسمّى الصفيراء في ضواحي مكة وضمن حدود الحرم، وهو بيت من البلوك غير المليص الجدران، وفيه ثلاث غُرف وحمامات، وحَوْشٌ واسع ثُلثه مسقوف بالبلاكاش، وكان بعيداً من عين كلّ رقيب أو حسيب، إذ لم يكن حوله أيُّ بيت آخر، بل كان منفرداً في تلك البقعة لوحده، ما عدا بيتاً واحداً خَلْفَه. وكان بابه يفتح على سهل واسع من الأرض. وكان هذا البيت هو محطة استراحة الإخوان المُعتمِرين من خارج مكّة.

كنت أستلم من معهد الحرم مُكافأة قدْرُها ١٥٠ ريالاً فقط، وبما أني متأثّر بسِيَر السلف الصالح ممّن طلب العلم ولاقى المِحن في سبيل ذلك، فقد كنتُ مُقتنعاً بهذا المبلغ الذي كنتُ أصرفه على القليل من الطعام وعلى الكثير من الكُتب. وكان أصحاب المكتبات يُقسّطون لنا ما نشتريه منهم من كُتب إلى ميسرة، وكان ذلك أمراً شائعاً ومعروفاً بين الطلبة. وكان يصل إلينا بعض الصدقات المُشترِطة في صَرْفُها على طُلّاب العلم في مكّة، وذلك بين فينةٍ وأخرى. وكان

مجموع ما وصلني خلالَ سنة، في مكة، ٢٠٠٠ ريال تقريباً، وكان يُوزّعها علينا مشايخُنا في المعهد أو الشيخ صالح المقوشي مدير المعهد. فكنتُ أسدّد بما أحصل عليه من صدقات دُيوني المتراكمة لأصحاب المكتبات، وأعتاش بما بقي معي منها. كان بعض زملائنا، وخُصوصاً المغتربون منهم، يعملون كعُمّال نظافة في الحرم، وكان بعضهم يعمل بائعاً متجوّلاً. وقرّرْتُ أن أعمل بائعاً مُتجوِّلاً للساعات في الموسم، واصطحبني أحد الإخوان، وهو حضرميّ إلى تاجر جُملةٍ لكي يُزوّدني بالبضاعة، وكانت عبارةً عن ساعات وست إند (West End Watch). وحينما أخذت هذه البضاعة ودُرْتُ فيها على المُعتمرين والحُجّاج، التقيتُ بأحد الإخوان، ففحص الساعات ثمّ قال لي: هذه البضاعة يحرُم عليك ترويجُها!. وحين سألتُه عن السبب قال لي إن هذه الساعات تحتوي على رَسْمة الصليب، وقد أُمرنا بكسر الصليب وطمسِه. حقيقةً، أنا كنت أحمل هذه الأفكار، ولم أنتبه إلى وجود الصليب على الساعات، وذهبت إلى الشخص الذي زكّاني عند تاجر الساعات وشرحتُ له الأمر، فأخذ الساعات منّي وأعادها إلى التاجر كما أخذتها منه. وفي المساء دار حوار حول هذه الساعات وأنه لا يجوز لي أن أُرجِعها إليه، وإنما يجب عليّ أن أُنكر المُنكر بيدي، بحيث أُعيدها وقد طُمس الصليب. وقد اكتشفت في ما بعد أنّ الإخوان عموماً يطمسون الصليب بوضع صبغ الأظافر عليه، وبعضهم ممّن اقتنع بتحريم لبس الحديد المحلق يغيّر أبزيم هذه الساعة المعدني بسير من الجلد أو البلاستيك، ومن لم يغيّر السير لا يلبس الساعة،

وإنما يضعُها في جيبه أو يعلّقها بسَلْسالٍ ويضعها في جيبه الصغرى. شاهدتُ مجموعةً من الإخوان يفعلون ذلك ويهتمون به، وكان لبس الحديد المحلق ولبس الساعات أحد المواضيع المتكرّرة في مجالس الإخوان.

كنا بحقٍّ في حالة ضَنْكٍ وضيق ماليّ يضطر طالب العلم بسببه إلى التخلّي عن أعزّ ما يملك، وهي الكتب. وقد حدث لي حادث هنا، وهو أني كنتُ أهوى تملّك الطبعات الأصلية من الكتب، وقد حصلتُ على كتاب **فتح الباري شرح صحيح البخاري** طبعة بولاق، وعلم أحد الزملاء، وكنتُ قد استدنْتُ منه مبلغاً من المال، وساومَنِي على أن يأخذ منّي الكتاب مقابل دَينِه (وكان دينه ٤٥٠ ريالاً) فرفضتُ؛ لأنّ الكتاب أغلى من ذلك، وبعد أسبوع عاد إليّ مُطالِباً بنُقوده متشكياً ضيق ذات يده، فعرضْتُ عليه أن يأخذ **فتح الباري** ويعرِضه على أحد هُواة جمع الطبعات المعروفين عندنا في مكّة، لعلّه يشتريه. وفِعلاً، أخذ الكتاب وعاد إليّ بعد يومين، وقال لي: إنّ الكتاب قد بِيع بـ ٥٠٠ ريال، وأعطاني ٥٠ ريالاً، وأخذ نقوده التي أدين له بها. وبعد مدّةٍ زُرتُه في مقرّ إقامته، وفي أثناء تأمُّلي مكتبته وجدتُ كتاب **فتح الباري** طبعة بولاق، نسختي العزيزة عليّ، يتوسّط مكتبته، فما كان منّي إلّا أن خرجتُ من بيته مُسرعاً؛ لشعوري بأنني قد تعرّضتُ للخديعة والضرر.

مثل هذه الممارسات وغيرها كثيراً ما تحدث بين الطلبة، وقد تهُون مُصيبتي أمام مصائب بعض الطلبة؛ إذ إنّ

بعضهم يبيع مكتبته بمُجملها بسبب ضيق ذات اليد!.

وقد تعرّفتُ إلى رجُلٍ حضرميٍّ أُصيب بلوثةٍ بسبب حَرْق مكتبته في اليمن الجنوبي على يد، كما يقول، الشيوعيّين. هذا الرجل كان يملك مكتبة كبيرة جدّاً تحوي كلّ ما وصلت إليه يده من طبعات أصلية من جميع أنحاء العالم. والغريب أنه يحفظ أسماء الكتب، ومؤلّفيها، وتواريخ طبعها، وأين طُبعتْ، والطبعة الجيدة منها، ومَن اختصرها، ومَن شرحها، ومَن ألّف في بابها. كان يجلس يتكلّم مع نفسه غالباً، وكان يمرُّ أحياناً على بعض حلقات العلم، ثم يقول لي: إنّ هذا الشيخ يُدرّس الطلبة كتاباً ناقصاً في هذه الطبعة التي اعتمدها!. ثم يمرُّ من المكان نفسه في اليوم التالي ويردّد ما قاله بالأمس. وحقيقةً، لقد استفدتُ منه فوائد ما كنت لأحصل عليها إلّا بعد كَدٍّ وتعبٍ.

(٣)

وعاد الشيخ بديع بن إحسان الله شاه الراشدي من الباكستان، وجلب معه كرسيّاً للتدريس في الحرم. وقصة هذا الكرسي أنّ أحد أتباع الشيخ المقرّبين في السند طلب من الشيخ بديع أن يصطحب معه من الباكستان هذا الكرسي الذي صنعه للشيخ، لكي يدرّس عليه في الحرم خصيصاً.

واستأنف معهد الحرم عامه الدراسي بعد الحجّ، وبدأت الدراسة في حلقة المبتدئين، من قرآن وحديثٍ وفِقهٍ ونَحْوٍ وتوحيدٍ وفرائض وتفسير وحساب. كنّا نبدأ يومنا بعد صلاة

الفجر، حيث يأخذنا عبد الله الحربي بـ «وانيته» من بيت الإخوان، وفي طريقنا نمرُّ على الشيخ بديع قبل أن يُهدي له الشيخ أبو تراب الظاهري سيارته الكورولا (Corolla) ونأخذه من بيته ونصلّي في الحرم، ثم نتحلّق حول الشيخ بديع أنا وعبد الله الحربي وسلطان اللحياني ومرزوق السلمي. وكنّا نقرأ على الشيخ كتاب **عون المعبود في شرح سنن أبي داود** وكتاب **نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر** لابن حجر العسقلاني، وقد أتممناه عليه في شهرين، ثمّ قرأنا عليه **المختصر** لابن كثير. وحقيقةً لم أستفد من الشيخ بديع في المصطلح قَدْر استفادتي من مناقشات الطلبة ومراجعاتهم. ثم بعد ذلك نذهب، غالباً، جميعاً، إلى أحد المطاعم القريبة من الحرم، ما عدا الشيخ بديع، فيذهب إلى شيخٍ أعمى اسمُه الشيخ فتحي، وهو من جماعة أهل الحديث في الهند، وواعِظٌ في الحرم، وله خلوة فيه. يذهب الشيخ إليه ويزورُه ويُفطر معه، إلى أن يأتي وقت عمله في التدريس في معهد الحرم، وكذلك نحن. فكنّا نستأنف الدراسة من الساعة الثامنة حتى صلاة الظهر، ثم ندرس حصةً واحدة بعد صلاة الظهر، ومقدار الحِصة خمسون دقيقةً تقريباً، أذهب بعدها إلى بيت الإخوان، وأحياناً كنتُ أبقى في الحرم، خصوصاً في الشهور الأولى من سُكناي في مكة. وكنت أحرص على أن أكون في الحرم قبل صلاة العصر بساعةٍ، كنتُ أقضيها غالباً مع الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي، وكان يحتفي بي كثيراً، خصوصاً حين علم أنّني من الزبير، ولذلك حكايةٌ أخرى. وبعد صلاة المغرب كنتُ أحضُر حلقة الشيخ بديع

في كتاب **المحلّى** لابن حزم، ثم مُنع الشيخ من تدريس كتاب **المحلّى**، واستُعيض عنه بكتاب **تفسير ابن كثير**. وسبب منع الشيخ من تدريس كتاب **المحلّى** أنّه كان يهاجم المذاهب الأربعة، وخصوصاً المذهب الحنفي. وكان بجانب حلقة الشيخ بديع حلقةٌ لطلاب علم من بخارى يدرسون المذهب الحنفي، وكان الشيخ يُسمِعُهم ما يكرهون وما هو خارج عن الذوق والأدب، حتى إنّه كان يسمّيهم مُخَنَّثِي الفقهاء. وكثيراً ما ردّد قوله مُلتفتاً إليهم: أُنْظُر إلى هؤلاء المخانيث يتركون حديث رسول الله لآراء الرجال!!. وهكذا. . حتّى شكَوْهُ إلى الشيخ محمد بن سبيل مدير الحرم للشؤون الدينية، وقدّموا فيه عريضةً جاء فيها أن الشيخ بديع يتطاول على العلماء، وأنه يدرّس المذهب الظاهري وهذا أمرٌ لم يُعهد مثلُه في الحرمين، فاستدعى الشيخ وطلب منه أن يُخفّف من لهجته ضدّ علماء المذاهب الأربعة، وأن يمتنع عن تدريس الفقه الظاهري المتمثّل بكتاب **المحلّى** لابن حزم، واقترح عليه الشيخ ابنُ سبيل كتاب **تفسير ابن كثير** بديلاً عنه، وقد تمّ ذلك بعد أن قطعنا شوطاً لا بأس به من **المحلّى**. فأصبحنا نقرأ في **تفسير ابن كثير**.

ـ أ ـ

إن مرحلة قراءتي على الشيخ بديع الدين بن إحسان الله شاه الراشدي السندي من أهم مراحل تكويني المرحلي في تلك الفترة، على الرغم من أنّي واجهتُ مشكلة مع عربية الشيخ غير المبيّنة؛ فقد كان يتحدّث العربية الفُصحى

بِلَكْنةٍ أعجمية غالبة، وكنت في البداية أواجه صعوبة في فهم ما يقول، خُصوصاً وأنه كان سريعاً في كلامه. فشكوت إلى عبد الله الحربي ذلك، فقال لي إنه كان يواجه المشكلة نفسها، ومع الأيام أصبحتُ أفهم كلامه، أمّا السرعة، فصحيح أنه يتكلم بسرعة، فكلّمه عنها، فخفّف من سرعته قليلاً. وفِعلاً، بعد فترةٍ أصبحتُ أستبين كلامه بفعل التعوُّد على لَكْنَتِه، وعلى الرغم من أن الشيخ بديع قد سافر مُبكراً إلى أوروبا وبعض دول آسيا، وعلى الرغم من إجادته عِدّة لغات، مثل الهندية والفارسية والإنكليزية والعربية، إضافةً إلى لغته الأمّ، الأوردية، إلا أنه بقي أسير الفهم التراثي للأفكار. نعم كان ظاهريَّ المذهب، لكنه يُنكر أنّ **طوق الحمامة** لابن حزم، وينكر أنّ ابن حزم قد حلّل الغناء. كان يخاصم بشكل متعصّب كلّ من يشكّك في عقيدة ابن حزم، وهذه الحالة لازَمَتْهُ إلى وفاته. وقد نقل لي بعض الزملاء أنّ الشيخ بديع كان يرفض فكرة أنّ ولده نور الدين قد تُوفي في حادث الحرم، وأنه حيٌّ يُرزق. والغريب أنّه يستدلّ بالآية ﴿**وما قتلوه وما صلبوه...**﴾ [النساء: ١٥٧].

ولو سُئلْتُ ممّن استفدْتَ في طلبِك العلم في مكة؛ لقُلت إنّني لم أستفِد استفادةً حقيقيةً إلّا من شخصين، وهما الشيخ بديع والشيخ عبد العزيز بن راشد. أمّا الشيخ بديع فقد استفدتُ منه في دروس ما بعد الفجر، وأمّا الشيخ ابن راشد فقد استفدت من مُذاكرتي معه مصطلح الحديث، وقد حاولتُ أن أدرس بعض المتون، مثل **متن السلم** في المنطق

وبدأت به فعلاً على شيخ هندي. وعَلِم بعضُ الإخوان بذلك، وتحديداً عبد الله الحربي، وكلّمني ناصحاً بانفعالٍ لكي يصرفني عن هذا العلم الذي شدّد علماء السلف النكير على من يتعاطاه، وأنّه مبتدَع، وأنّ عالِمه لا يُعدُّ في مَصافِّ العلماء، وأنّ عُلماءه يجب أن يُضربوا بالنعال، وأنه ليس من علوم السلف.

(٤)

كنتُ، كما قلت، أحرص على فترة بعد العصر، التي أقضيها في الحرم، ألتقي في خلالها بالشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي الذي توطّدتْ علاقتي به بعد أن علم أنّني من الزبير، وقال لي إنه انطلق من مكة مع عبد الله القصيمي، وذهبوا إلى الزبير للدراسة على بعض مشايخها، وأنهما سكنا في مسجد الإبراهيم، وبعد شهور تركوا الزبير وتوجَّهوا إلى الهند بعد أن زوّدهُم عُلماء الزبير بخطابات توصيةٍ لعلماء الهند، وبعد ذلك تركوا الهند وتوجَّهوا إلى بغداد، وكان معهم في بغداد عبد الله بن يابس. ثم تركوا بغداد وتوجَّهوا إلى مصر للدراسة في الأزهر، وأخذ يحكي لي عن حياتهما في مصر وعن أسباب التحوُّلات التي طرأت على فكر عبد الله القصيمي. كنت أستمتع بحديثه الهادئ وذاكرته القوية، وبعد ذلك أصبحت أقرأ عليه في المصطلح، فما كنت أقرأه في درس الفجر أُعيده عليه بعد العصر، رحمه الله. فقد كان رئيفاً رفيقاً بصغار الطَّلَبة تنشرح أساريرُه لهم. كنتُ أمرُّ عليه بعد كلّ عصر، وحتى بعد أن استقرّ بي

المقام في المدينة كنتُ أحرص على أن أمُرّ عليه إذا نزلت إلى مكة. وفي إحدى هذه النزلات، وجدتُ عنده شيخٌ بَشُوشٌ، فقدّمني له الشيخ عبد العزيز بقوله: هذا فلان من الإخوان. ثم قال الشيخ عبد العزيز: وهذا الشيخ محمد أمين المصري. فقلت: الشيخ محمد أمين المصري شيخ شيخنا مقبل بن هادي الوادعي؟ فقال، نعم. فقلت للشيخ محمد: لقد سمعتُ عنك كثيراً، وتمنّيْتُ لو كنت درسْتُ عليك. ثم قال لي الشيخ محمد: «إنّ الملأ يأتمرون بكم»!. وكنت وقتها على اطّلاع على ما كان يكتبه بعض المشايخ وطلبة العلم ضد الإخوان، فقلت له: سيكفينا الله شرّهم. هذا الكلام قبل الاعتقال الأول بشهور[٢]. لقد شهدت الشيخ عبد العزيز يسعى حثيثاً خلف الشيخ عبد الله بن حميد، حتى وقف فسأله عن سبب منعِه من التدريس والسماح لعلوي المالكي؟! وكان الشيخ قد مُنع من التدريس في الحرم بسبب أنه ظاهريُّ المذهب وبسبب مهاجمته للمذهبية وللمذاهب الأربعة، وكان يشعر بالمرارة لأنه يُحارَبُ في مصر؛ لآرائه في التوحيد، وهي سلفية. وكان بعض علماء الأزهر يطلقون عليه اسم الوهّابي الخامسي (كانوا يطلقون على الوهابية الخامسيّة، وواحدُهم خامسيّ؛ لأنهم يرون أنهم استحدثوا مذهباً خامساً غير المذاهب الأربعة، الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي). فلمّا انتقل إلى بلده المملكة

(٢) تُوفي الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله في رمضان ١٣٩٧هـ الموافق لـ ١٩٧٧م.

العربية السعودية، حُورِب من قِبل علماء المذهب الحنبلي؛ لأنه ظاهري المذهب من أتباع ابن حزم، ومَنَعَهُ الشيخ عبد الله بن حميد رئيس إدارة الحرمين ورئيس مجلس القضاء الأعلى من التدريس.

(٥)

كنّا في يوم الجمعة، وهو يوم إجازة المعهد، نذهب للدعوة في القرى الموجودة في ضواحي مكة. وكان الخطاب الدعوي وقتها يركّز على البدع المنتشرة بين أهل هذه القرى. وكان غالباً يتولّى هذه المهمة عبد الله الحربي. كُنّا نصلّي معهم الجمعة، أو يصلّي بهم عبد الله الحربي الجمعة، ولا توجد قرية قصدناها إلا ونجد أن جماعة التبليغ سبقونا إليها من قبل، فهذه الجماعة لها نشاط ملموس بين عوامّ هذه القرى، لهذا، فقد كنّا غالباً ما نلتقي بأحد من أبناء هذه القرى خرج معهم إلى الدعوة، سواء لأسبوعٍ داخل المملكة، أو لأربعين يوماً خارجها، وهم محبوبون عند أهل هذه القرى؛ لعدم صِداميّتِهم معهم ولِدماثة أخلاقهم وتواضُعهم... ومن الملاحظ أنّ كثيراً من الإخوان كانوا في جماعة التبليغ أصلاً قبل أن ينضمّوا إلى الجماعة السلفية المحتسبة، أو إلى الجماعة السلفية الموجودة في الكويت. وهناك مقولة متداولة وهي أنه لو قامت الدولة الإسلامية لكان أفراد جماعة التبليغ من عوامّ دولة الإسلام، وأن السلفيين من علمائها، وأن الإخوان المسلمون من ساستِها. لا أذكر من صاحب هذه المقولة،

لكنّي في فترة البدايات كنتُ معجباً بها وكنتُ أردّدها، خُصوصاً وأنّني كنتُ حينها من المتعاطفين مع التقريب بين الجماعات الإسلامية.

(٦)

في أحدَ الأيام زارنا في مكة جهيمان، وبعد أن أدّى مناسك العمرة جلس معنا في بيت الإخوان في الصفيراء، وكانت الجلسة ذات طابع علمي بحت، ثم طلب مني أن أصحبه في سفرة للدعوة، فوافقت وكانت هذه السفرة أول سفرة طويلة لي خارج مكة. وأذكر أننا ذهبنا وقتها إلى بعض قرى الحجاز مثل رهاط ومدركة ثم ذهبنا إلى الطائف. كان جهيمان يناقش في دروسه الوعظية غالباً محاذير يقع فيها عوامّ البادية مثل زواج الشغار، وعدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها، وحكم السحر وإتيان السحرة، وأحكام الدماء: الحيض والاستحاضة والنفاس. أما في بيوت الإخوان ومن يستضيفنا من المحبين والأنصار في الحواضر فيناقش مسائل التقليد المذهبي ونبذ التمذهب وأتباع الدليل ولابد أن يكون لتأويل الرؤيا نصيب وافر من الجلسة.

ومنذ هذه السفرة لم أفارق جهيمان، غالباً، في أي سفرة سافرها للدعوة قبل الاعتقال الأول. لقد عرفته عن قرب من خلال هذه السفرات وتعلقت به أعجبني فيه كرمه وتواضعه ودماثة خلقه وتفانيه في العمل الدعوي، وكرهت فيه تعصّبه لقبيلته عتيبة، وذكره لمثالبَ القبائل الأخرى.

وأوقعني هذا الأمر في حيرة شديدة، فجهيمان، بالرغم من أنه شديد في خطابه الدعوي إلا أنه ضعيف أمام رواسب القبَلية عنده فهو يمحّص ويحقق أحاديث الرسول، ويضعف أمام أخبار قبيلته ويرويها كأمجاد مسلّم بها، وإن كان فيها ظلم للآخرين، من الأشياء التي كثيراً ما سمعتها من جهيمان وسيكون لها دور في تشكيل أفعاله قوله «إن البدو يتميزون بقدرات خاصة لا يتمتع بها الحاضرة مثل الفراسة والجَلَد وتحمّل المشاق» هذا الكلام لم أسمعه بشكل عارض أو مرة واحدة، وإنما كان يردّده كثيراً. كنت في تلك الفترة مفتوناً بمثل هذه الأفكار، ولكن بعد أن دخلت إلى السجن وخلوت لنفسي وجدت أنها أفكار سطحية وغثّة ولا تصنع أمة حديثة بأي حال من الأحوال. كنت أتأمل في حال وصلت هذه الفئة إلى رأس السلطة، ما ذا سيكون شكلها؟ كنت أتخيلها وهي تأكل أبناءها من الحضر ومن القبائل الأخرى، وتمكّن الشكل القَبلي الأحادي، أعني قبيلة جهيمان، وستدور رحا التطهير وحمامات الدم، وسأذكر مثالاً على ذلك: يخبرني جهيمان أنه ذهب إلى أحد المسؤولين عن الدعوة في «دار الإفتاء والدعوة والإرشاد» فلم يقابله بتواضع، وكان دائماً يردد قصة هذا اللقاء. ثم أخبرني أسامة عوّاد إبراهيم وهو مصريّ مُسك في قضية الحرم أنه كان مع هذا الشخص الذي يذكره جهيمان دائماً وإن جهيمان في أوائل سيطرته على الحرم وجد هذا الشخص أمامه فأمر بسجنه بسجن الحرم هو ومجموعة معه، علماً أنّ هذا الرجل ليس من ذوي الجرم، ولكن

الموقف السابق مع جهيمان هو جرمه. هذا مثال بسيط وممارسة من رجل على رأس الحركة، فما بالك بممارسات الرعاع والدهماء بعد ذلك؟

(٧)

كثيراً ما سئلت عن طبيعة هذه الحركة، وكثيراً ما قرأت ما قيل عنها وكل يصنّفها حسب التوجه الذي يتبنّاه؛ فاليساريّون صنّفوها كحركة ثورية، وبعض العروبيين صنفوها كحركة انقلابية، والبعض صنّفها كحركة احتجاج، وجميع هذه التصنيفات خاطئة على إطلاقها، والسبب بُعد هذه التيارات عن حقيقة خطاب «الجماعة السلفية المحتسبة» وهو الاسم الرسمي لهذه الجماعة فهذه الجماعة ثورية وانقلابية واحتجاجية، ولكن بطريقتها وبشروطها. وحتى لا نقفز على نسق هذه الجماعة يجب أن نشير إلى البيئة التي كونت فكر جهيمان. . من المعروف أن جهيمان نشأ في إحدى الهجر التي أنشئت لاستقرار البدو وتعليمهم، والذين عرفوا في ما بعد باسم الإخوان «إخوان من طاع الله» واسم هذه الهجرة «ساجر»[٣] وكان جميع البدو القاطنين في هذه الهجرة من الإخوان الذين حاربوا مع الملك عبد العزيز بقيادة سلطان بن بجاد «كان الإخوان يطلقون عليه سلطان الدين» ثم تمرّدوا على الملك عبد العزيز بسبب منهج التحديث الذي

---

(٣) يُقال إن ساجر تأسست عام ١٣٣٣هـ بتوجيه من الملك عبد العزيز رحمه الله.

انتهجه الملك عبد العزيز وحاربوه في وقعة «السبلة» وهزموا أمامه، واستسلم سلطان بن بجاد للملك عبد العزيز وتوفي بعد ذلك في السجن بعد مدة، هذه الواقعة ولّدت شعوراً بالغبن عند الإخوان عموماً وعند أهل ساجر خصوصاً ونشأ جيل ورث بعضهم الضغينة للنظام القائم والتمرد عليه؛ فجهيمان»، مثلاً، كان يعمل في التهريب من الكويت قبل أن يتدين كما أخبرني مشافهةً وغيره[٤]، مثل هذا المحيط المتمرد هو الذي كوّن نفسّية جهيمان بن محمد بن سيف الضان وجعله لا يدين بالولاء للنظام القائم في فتراته المبكرة، خصوصاً وأن والد جهيمان[٥] صديق حميم لسلطان بن بجاد ومن الذين نصحوه بعدم الاستسلام للملك عبد العزيز وهذا يذكرنا بعدم استسلام جهيمان حينما طلب في الاعتقال الأول بعد سنة ١٣٩٨هـ لأنه يرى أن الدولة غادرة لأنها غدرت بسلطان بن بجاد أولاً ومن ثَمّ فهي من الممكن أن تغدر به بعد ذلك. خصوصاً وأن جهيمان يرى

(٤) أخبرني صنيتان العتيبي، وكان معي في المعتقل، أنه كان يهرّب الدخان من الكويت مع جهيمان، ولم يكن الدخان ممنوعاً، وإنما كانت الضرائب عليه باهظة والرقابة عليه شديدة في المنطقة الوسطى عكس المنطقة الغربية والشرقية، وكانوا، غالباً، يهرّبون الدخان لصالح تجّار معينين يوفرّون لهم أحياناً سيارات الفرد الحمراء، وقد نجد في شعر كثير من الشعراء الشعبيين إشارات الى ذلك.

(٥) توفي محمد بن سيف الضان العتيبي، والد جهيمان، في أوائل السبعينيات في حادث دهس سيارة على طريق المدينة، وكان بصحبته في هذه السفرة جهيمان. وأما جدّه سيف فقد قُتل مبكراً قبل السبلة بمدة في إحدى الحوادث التي كانت تنشأ بسبب الخلافات القبلية، وليس بصحيح ما جاء في مقدمة **رسائل جهيمان**، ص ١٥ والتي كتبها الدكتور رفعت سيد أحمد، منَ أن جدّ جهيمان قُتل في السبلة.

أن قبيلته قد تقاعست عن أخذ الثأر من السلطة التي قتلت سلطان بن بجاد فكان في نفسه من ذلك الشيء الكثير، وكثيراً ما يصرّح به[٦].

(٨)

تأسست «الجماعة السلفية المحتسبة» بعد حادثة تكسير الصور أي بعد سنة ١٩٦٥م تقريباً حيث تجمّع ستة على رملة بعد صلاة العشاء وقرروا أن يؤسسوا جماعة تقوم بأمور الدعوة والتذكير في المساجد والأماكن العامة وجميعهم خرجوا من عباءة جماعة التبليغ ما عدا واحداً منهم يبدو أنه من الإخوان المسلمين، ولأنهم يرون أن جماعة التبليغ لا تهتم بالتوحيد في دعوتها كما إنهم كثيراً ما يتساهلون في قضايا الولاء والبراء وقضايا إنكار المنكر رأوا أنها جماعة لا تدعو على هدي من الكتاب والسنة

---

(٦) مثل قوله في **رسالة الإمارة والبيعة والطاعة وحكم تلبيس الحكام على طلبة العلم والعامة**: وأقرب مثال وأوضحه؛ مؤسس دولتهم الملك عبد العزيز والمشايخ الذين كانوا معه في سلطانه، وهم ما بين موافق له ومعزز له بما يشاء، وآخر ساكت عن باطله، وآخر التبس عليه الأمر، فقد دعا «الإخوان» رحمهم الله الذين هاجروا في القرى المختلفة هجرة لله عز وجل، دعاهم إلى بيعته على الكتاب والسّنة، فكانوا يجاهدون ويفتحون البلاد، ويرسلون له بما للإمام من الغنائم والخُمس والفيء ونحو ذلك، على أنه إمام المسلمين، ثم لما استقر سلطانه وحصل مقصوده؛ وآلى النصارى، ومنع مواصلة الجهاد في سبيل الله خارج الجزيرة، فلما خرجوا لقتال المشركين في العراق الذين يدعون علياً وفاطمة والحسن مع الله؛ لقّبهم هو ومشايخ الجهل الذين معه، لقبوهم باسم يكرهه أهل الإسلام، وهو «الخوارج».

وهؤلاء الستة هم جهيمان بن محمد بن سيف العتيبي قائد وايت في الحرس الوطني وشبه متسبب، وسليمان بن شتيوي وكان حينها طالباً في الجامعة الإسلامية، وناصر بن حسين العمري الحربي وسعد التميمي وكلاهما طالب في معهد المعلّمين حينها وهناك اثنان لم أدركهما ولم أعرفهما لأن أحدهما وهو يمني توفي بظروف غريبة إذ إنه ذهب إلى الدعوة على قدميه لمنطقة بعيدة «يُقال أنها منطقة النخيل». ووجد ميتاً في أحد الآبار، أما الآخر فقد انفصل عن الجماعة مبكراً لأنه من الإخوان المسلمين، ويبدو أن هذا الشخص كان يطمح إلى تجنيد مجموعة من السلفيين، فأصطدم بمواقف السلفيين الرافضة لفكرة التحزب الحركي، وكان جهيمان يتحدث عنه بصفته شخصاً عمل مع الإخوان السلفيين لهدف معيّن مخالفٍ لما عليه الخط السلفي المرسوم مسبقاً والمتفق عليه، هذا ما سمعته من جهيمان مباشرةً. على كل حال ذهبت هذه المجموعة إلى الشيخ عبد العزيز بن باز وأخبروه بقرارهم تكوين جماعة سلفية تنبذ التمذهب وتدعو إلى التوحيد والتمسك بالكتاب والسنة الصحيحة وأنهم لا يهدفون من وراء عملهم هذا أي هدف دنيوي وأنهم يعرضون عليه منصب المرشد لهم والموجّه، فوافق، وأخبروه أن اسمها سيكون الجماعة السلفية فقال لهم بما أنكم تحتسبون الأجر من الله فليكن اسمها «الجماعة السلفية المحتسبة»، وقد تم ذلك. لم تكن الجماعة سرّية بل كانت علنية بشكل مبالغ به حتى إن بعض

الأوراق مطبوع عليها اسم الجماعة، وأنا أذكر في حج سنة ١٩٧٧م كان بيد حزام البهلول، وهو يمني من الإخوان ثم تحول إلى الإخوان المسلمين، ميكرفون يعلن فيه انطلاق حملة حج الجماعة السلفية المحتسبة، هكذا يذكرهم باسمهم من دون مواربة.